

الحجاج وسعيد بن جبير

تمثيلية إسلامية قصيرة...

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي

أشخاص الرواية :

١- الحجاج بن يوسف : طاغية الأمويين

٢- سعيد بن جبير : المؤمن الصالح التقى

٣- جنود وحاشية للحجاج .

« يبدو الحجاج على المسرح جالسا في زهو وكبرياء ، وحوله بعض أتباعه ، ثم يدخل سعيد هادئاً ساكناً ، وحوله الحرس ، وتلوح عليه علامات الهزيمة وإن ظل عزيزاً في نفسه » .
الحجاج : « في غلظة » ما اسمك ؟ ..

سعيد : « في هدوء » اسمي سعيد بن جبير .

الحجاج : بل أنت شقي بن كسير .

سعيد : « وقد علا صوته » بل أمي كانت أعلمني يا حجاج باسمي واسم أبي .

الحجاج : « مغيظاً » شقيت ، وشقيت أمك ، وشقي أبوك .
سعيد : الغيب يعلمه غيرك يا حجاج ، سبحانه لا يُطلع على غيبه أحداً ، إنما يشقى مَنْ لعنه ربه وحرمه من رحمته ، وإن أعوذ منك بما استعذت به مريم بنت عمران حيث قالت :

« إني أعوذك بالرحمن منك إن كنت تقيا »

الحجاج : « مهدداً » والله لأذيقنك كأس الموت مريرة ، ولأوردنك حياض النايامترعة ... لك الويل يا شقي .

سعيد : إذا لقد أحسنت أمي حين سميتني بسعيد ، فما أطيب الشهادة في سبيل الله ! ...

الحجاج : بل ستموت ، ميتة المغضوب عليهم من الضالين والفاسقين ، فلا بد لك بالدنيا ناراً تلظى .

سعيد : « في سكون » لو كنت أعلم أن ذلك بيدك يا حجاج لا اتخذتك إلهاً من دون الله ، ولكنه ربي جل شأنه ، هو مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ،

وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الأمر كله ، وهو على كل شيء

قدير ، وسيقال يوم القيامة : لمن الملك اليوم ؟

فيقال : لله الواحد القهار .

« تمر فترة صمت قصيرة »

الحجاج : « ينقل الحديث إلى موضوع آخر » ما قولك في محمد بن عبدالله ؟ ...

سعيد : هو نبي الرحمة ، وهادي الأمة ، وكاشف الظلمة ، ومبيد الفسقة ، وجامع الكلمة ، وسبب النعمة ؛ رسول رب العالمين ، إلى الناس أجمعين ؛ رسول ختم الله به الرسل ، وصدق به الوحي ، وأنقذ به من الهلاك والنقمة ، سيد ولد آدم ، خير من مضى ، وخير من بقى ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ...
الحجاج : فماذا تقول في أبي بكر ؟

سعيد : إنه الصديق ، خليفة رسول الله ، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، عاش حميداً ومضى مجيداً ، وأفضى إلى ربه على منهاج نبيه صلوات الله عليه ، لم يغير ولم يبدل .
الحجاج : فماذا تقول في عمر بن الخطاب ؟

سعيد : عمر الفاروق ، خيرة الله وخيرة رسوله ، عاش مؤمناً ، ومضى حميداً على منهاج صاحبيه ، لم يغير ولم يبدل .
الحجاج : فماذا تقول في عثمان بن عفان ؟

سعيد : المقتول ظلماً ، المجهز جيش العسرة ، الخافر بئر رومة ، المشتري بيته في الجنة ، ذو النورين ، صهر رسول الله على ابنتيه ، زوجهما له النبي بوحى السماء وقال : لو كان عندنا ثالثة لزوجناك يا عثمان ! ...
الحجاج : فماذا تقول في علي بن أبي طالب ؟

سعيد : السيف الغالب ، والمجاهد الكاتب ، والعالم الخاطب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من أسلم من الفتيان ، وزوج فاطمة الزهراء البتول ، وأبو الحسن والحسين ، وهما سيدا شباب أهل الجنة يوم القيامة .
الحجاج : فماذا تقول في معاوية بن أبي سفيان ؟

سعيد : « متخلصاً من الإجابة » شغلتنى نفسي عن تصريف هذه الأمة ، وتميز أعمالها ، وتتبع رجالها .
الحجاج : فماذا تقول عني ؟

سعيد : لا داعي للكلام يا حجاج !

الحجاج : لا بد لك من أن تجيب .

سعيد : « واثقاً » إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى ، تبدي من نفسك أموراً تريد بها الهيبة ، وهي

تقبحك الهلكة، وسترد غداً على ربك يوم الحساب،
فتعلم علم اليقين .

الحجاج : « يصرف الكلام إلى وجهة أخرى » فما قولك في
مآل علي بن أبي طالب ، أفي الجنة هو أم في النار ؟ .

سعيد : « متعجبا » لو دخلت الجنة وشاهدت أهلها
لعرفت ، ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعرفت ،

فما سؤالك عن أمر قد غيب عنك وحفظ بالحجاب ؟
الحجاج : فأى الخلفاء أحب إليك ، وأعز لديك وأثر عندك ؟

سعيد : أحبهم إلى أحسنهم خلقا ، وأرضاهم لبارئهم ومولاه ،
وأشدهم فرقا وخوفا من حسابه وعقابه .

الحجاج : فأيهم أرضاهم لخالفهم ؟
سعيد : علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم .

الحجاج : فماذا تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟
سعيد : وما بالك تسألني عن امرئ أنت أحد أعماله ؟

الحجاج : « مهتاجا » وماذا تعني يا شقي ؟ ...
سعيد : لست أدري ماذا أعني ، ولعلك تعرف ماذا أعني .

الحجاج : ستري عاقبة هذا ... « يهدىء نفسه » فأى رجل
أنا يوم القيامة ؟ وماذا يكون لي عند ربي ؟ .

سعيد : أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب ،
وأنت أدري بنفسك من غيرك يا حجاج .

الحجاج : « كالتلطف » آيتت أن تصدقني يا سعيد .
سعيد : بل لم أرد أن أكذب عليك فأحقق نفسي .

« يصمت الجميع قليلا »
الحجاج : « مستأنفا » دع عنك هذا كله يا سعيد ، وأخبرني

لماذا لم تضحك قط في حياتك ؟
سعيد : لم أضحك لأنني لم أر في حياتي شيئا يضحكني ؟

وكيف يضحك مهين ، مخلوق من طين ، والطين
تأكله النار ، ومنقلبه إلى دار الجزاء ، واليوم

يصبح ويمسى في الابتلاء ؟ . كيف يضحك من
خلق من تراب ، وإلى التراب يعود ؟ .

الحجاج : فلماذا إذن أضحك ، ويضحك غيري من الناس ؟
سعيد : جلست قدرة ربي ، لم تستو منا القلوب ، وكذلك

خلقنا الله أطوارا ، وجعل الاختلاف في ألسنتنا
وألواننا ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« يأمر الحجاج بالذهب والفضة واللؤلؤ ، فيجتمع
بين يديه من ذلك قدر كبير ، يريد أن يفتن

سعيداً به » .

الحجاج : أحضر واجانباً من الذهب والفضة « يحضرون ذلك »
سعيد : « با كياً » إن كنت جمعت هذ لتتقى به فزع يوم

القيامة فحسن جميل ، وإلا ففزة واحدة تذهل
كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل

حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ،
ولكن عذاب الله شديد .

« تبدو الحيرة على الحجاج ، ولكنه يملك نفسه ،
فيأمر بتنحية الأموال إلى جانب ، ويطلب أدوات

الاهو كالعود والناي لضرب عليها » .
الحجاج : على بالعود والناي ... هل رأيت شيئا من اللهو

يا سعيد ؟
سعيد : لا أعلم منه شيئا يا حجاج .

« يأمر الحجاج بضرب العود ونفخ الناي ، فيبكي
سعيد » .

الحجاج : ما يبكيك يا سعيد ؟ هل أبكتك خفة الطرب ، أو
روعة اللعب ؟ .

سعيد : إنما أبكاني الحزن يا حجاج ؟ أما النفخ فذكرني
يوما عظيما : يوم النفخ في الصور ، يوم لا ينفع

مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأما
العود فشجرة نبتت بحق ، ولعلها قطعت بغير حق ،

وأما هذه الأوتار فإنها من نفس مستحشر معك
إلى الحساب ، فاخش الله يا حجاج .

الحجاج : « هائجا » ويليك يا شقي ؟ أتؤدبني ؟
سعيد : « بهدوء » لاويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة

يا حجاج : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون
أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل

الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »
الحجاج : سأقتلك أيها الخارج المارق الشاق لعصا الطاعة .

سعيد : ذلك أمر إلى الله لا إليك ، إنه مالك الأسباب
ورب الأرباب ، وما تدري نفس ماذا تكسب

غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم
خبير . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا

يستقدمون . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو
كستم في بروج مشيدة . . إن الله عز وجل قد

وقت لي وقتا أنا باله ، فإن يكن أجلى قد حضر
فهو أمر قد فرغ منه ، ولا محيص لي عنه ساعة

من زمان وإن تكن العافية فالله أولى بها .

الحجاج : أنا أَحَبُّ إلى الله منك .

سعيد : ومن يدريك ؟ علم ذلك إلى ربي وربك ، إنه عليم بذات الصدور ، ولا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته عنده ، والله بالغيب أعلم ، إنه علام الغيوب ، فلا تركوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى .

الحجاج : كيف لا أكون عند الله خيراً منك وأنا مع إمام الجماعة ، وأنت خارج مع إمام الفرقة ؟

سعيد : لست بخارج على الجماعة ، ولا أنا براص عن الفتنة ولكنك قضاء الله نافذ ، ولا مرد له ، وهو رأي ارتأيت ، وعقيدة اعتقدتها ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ألا إلى الله تصير الأمور .

الحجاج : ما رأيك فيما جمعت لأمر المؤمنين من الأموال والخراج ؟

سعيد : حسن إن قمت بشرطه ، ووفيت بعهدك ، حتى ينجو من تبعته أمير المؤمنين ، وتنجو أنت كذلك منه .

الحجاج : وما شرطه ... « مستهزئاً » أيها الفقيه ؟

سعيد : شرطه أن تؤدي منه حق الله وحق العباد فيه ، أو تشتري لأمر المؤمنين به الأمن من الفرع الأكبر يوم القيامة .

الحجاج : فهل ترى ما جمعته طيباً ؟

سعيد : برأيك جمعته ، وأنت أعلم بطيبه مني ، فاستفت قلبك ونفسك ، وإن أفتوك !

الحجاج : « يجمع المال ملء يديه ويمدها إلى سعيد » أتحب أن لك منه شيئاً ؟

سعيد : « ياياه » لأحب إلا ما يحبه الله .

الحجاج : ويلك ، ما أجراك على ، وما أحلني عنك !

سعيد : « باطمئنان » قلت لك إن الوليل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، وأولئك هم الخاسرون .

الحجاج : « مغيظاً » اختر لنفسك قتلة أقتلك بها أيها اللعين .

سعيد : بل اختر أنت لنفسك يا حجاج ، فوالله لا تقتلني اليوم قتلة إلا قتلك الله مثلها يوم القيامة .

الحجاج : « كالمتراجع » أتريد أن أعفو عنك ؟

سعيد : « مستنكراً » ومن أنت حتى تعفو عني ؟ . إن كان العفو من الله ، أما أنت يا حجاج فلا براءة لك ولا مقدرة .

الحجاج : « مشيراً إلى أتباعه » اذهبوا به فاقتلوه . . .

« يحملونه إلى الخارج فيضحك سعيد » .

الحجاج : « يصرخ » ردوه . . . « لسعيد » ما الذي أضحكك أيها الشقي ؟

سعيد : عجبت من جراتك على الله ، وحلم الله عليك !

الحجاج : وكيف تتعجب ، وأنا إنما أقتل من شق عصا الطاعة ، وفارق الجماعة ، ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها ؟ .. « لأتباعه » اقتلوه . . . اقتلوه اضربوا عنقه ! هنا أممي .

« يحضر الأتباع النطع ويفرشونه » .

سعيد : إني أشهدك يا حجاج أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، احفظ هذه الشهادة حتى ألقاك بها يا حجاج ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الحجاج : « في غيظ » اضربوا عنقه . . « يهيمون به » .

سعيد : إذن دعوني حتى أصلي ركعتين « يتجه نحو القبلة ويقول » : إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين .

الحجاج : اصرفوا وجهه عن القبلة ، ووجهوه إلى قبلة الذين تفرقوا واختلفوا بينهم بغيا وعدوانا ، وإنا وبهتاننا ، فإنه من حزبهم بخروجه وعصيانه .

« يصرفونه عن القبلة »

سعيد : والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن واسع عليم . إنه الكافي بالسرائر ، الخبير بالضمائر ، وهو بكل شيء محيط .

الحجاج : لم نوكل بالسرائر ، وإنما وكلنا بالظواهر ، « للأتباع » كبوه على وجهه . . « يحفضون رأسه نحو الأرض » .

سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

الحجاج : اذبحوه . . اذبحوه . . اذبحوه . .

سعيد : إني أشهدك يا حجاج مرة أخرى أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها مني يا حجاج ، حتى تلقاني بها يوم القيامة

عند أحكم الحاكمين . . . اللهم لا تمهله بعدى ،
ولا تسلطه على أحد يقتله خلفي من المسلمين .
الحجاج : اقلوه .. اقلوه .. اقلوا اللعين « يتككبون
عليه » .

سعيد : اللهم لا تترك له ظلمي ، واطلبه بدى ، واجعلنى
آخر قتيل يقتله من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ،
الحجاج : « بفظة » اقلوه . . .

« يضربه أحدهم بالسيف ، فيسيل دمه غزيراً .
فينظره الحجاج خائفاً . وكأن رعدة قد مسته » .
الحجاج : ما هذا ؟ . . ما بال دمه يسيل بغزارة لا ينقطع ؟
ما أكثر من قتلت من الناس ، ولكن ليس
بينهم فى غزارة الدم مثل هذا القتل ! .

أحد الأتباع : إن هذا الرجل — أيها الأمير — قد قتلته
ونفسه معه ، فقد كان شجاعاً لم يخف ولم يرتجف ،
ولذلك كثر دمه وغزر ، لأن الدم تبع للنفس ،
والذين كنت تقتلهم قبله كانت نفوسهم تذهب من
الخوف والحشية ، فتقل دماؤهم عند قتالهم .
« الحجاج يهمهم كأنما قد استيقظ ضميره وأخذ
يؤنبه » .

الحجاج : أبعدا هذه الجثة اللعينة عني ، احملوها واذهبوا
بها بعيداً كيلا أراها . . يا إلهي ، ما هذه
القشعريرة التي تشمل جسمي كأنها رعدة الهلاك .
« يحمل الأتباع جثة سعيد بن جبير ، والحجاج
لا يقوى على النظر إليها من الهلع » .

صوت سعيد : « منخفضاً رهيباً » يا عدو الله ، لماذا قتلتني ؟
يا عدو الله فم قتلتني ؟ . . يا عدو الله بأى ذنب
قتلتني ؟ . . يا عدو الله يالعين ، آن لك ألا تنام .
الحجاج : ما هذا ؟ . ومن ذلك الذي يأخذ بخناقى ويناديني ؟
ياله من شبح مخيف ! ، أتقذوني . أغيثوني .
صوت سعيد : يا عدو الله ، لماذا قتلتني ؟ . .

« الحجاج يذهب يمينا وشمالا ، كأنما يريد النجاة من
الشبح الخفيف الذى يطارده ويناديه » .
صوت سعيد : يا عدو الله فم قتلتني ؟ . . يا . . .

« يتعثر الحجاج فيكبو . ثم ينهض فيكبو ، وهكذا »
الحجاج : ويلي . ويلي . ويلي . مالي وأسعيد بن جبير ،
مالي وأسعيد بن جبير . . ياطول شقوتك يا حجاج .
« يقع على الأرض مذعوراً مرعشاً »
الحجاج : إلى بأجنادى . . إلى يا أتباعي « بأتونه مهرولين »

احملوني ، هذا شبح سعيد أماى يطاردنى ، ويأخذ
بخناقى ، ويمسك بتلابيبي ، وهذا شبح الموت مقبلا
نحوى يريد افتراسى . . مالي وأسعيد بن جبير . .
مالي وأسعيد بن جبير ؟ . . شقيت وشقيت أمك
يا حجاج .

« يحمله الأتباع ويخرجون ما عدا واحد منهم »
التابع : سبحانك اللهم ، أنت قيوم السموات والأرض ،
جلت حكمتك ، وتعالى كلمتك ، تمهل ولا تمهل ،
وأنت على كل شيء قدير . . . لقد بنى الحجاج
وقتل الطيبين الظاهرين من عبادك وجنودك ،
اتباعاً للآثم والهوى ، ثم قتل سعيد بن جبير التقي
الورع ، البكاء الشهيد ، وما على وجه الأرض
أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه ، وهأتذا تنقم
لسعيد ، فتأخذ الحجاج أخذ عزيز مقتدر ، جزاء
ما أجرت يده ، فسبحانك من منتقم جبار ،
وعزيز قهار ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .
« انتهت »

أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

الرجل السعيد

. . . ألا إن السعيد هو من يعرف أن يرضى بحاله .
فليست السعادة هي الثروة ولا الاستمتاع بها .
وليست هي الجاه ولا آثاره .
وليست هي الحب ولا لذاته .
وليست هي العلم ولا نوره ولا منافعه .
وليست هي الجهل ولا جوده وجرأه .
وليست هي النباهة ولا كبرياؤها .
وليست هي الخمول ولا ازواؤه وتعطيله .
وليست هي الحكم ولا فى نظام الاستبداد ولا قدرته .
وليست هي الجمال ولا شفاعته .
وليست هي الظرف ولا خفته .
وبعيدة أن تكون هي العقل وحسابه ، إن لم تكن هي
الخيال وأوهامه .

ليست السعادة شيئاً من ذلك ، ولا هي كل ذلك بجمعه .
بل السعادة ظن السعيد أنه سعيد .

من كتاب التأملات

أحمد الطهفي الصغير باشا